المنهج التعليمي في نظم (الجوهر المكنون) لعبد الرحمن الأخضري

د.عبد الرؤوف محمدي

مركز البحث العلمي والتقني لتطوير اللغة العربية

وحدة البحث اللساني وقضايا اللغة العربية

ورقلة

ملخص

للمنظومات والشروح أثر بارز في تحصيل العلوم ونشرها بين الطلبة، ولمّا كانت أغلب المنظومات لرسائل نثرية أو تلخيصا لمنظومات أخرى فقد ألّف عبد الرحمن الأخضري منظومته المسماة بـ (الجوهر المكنون في صدف الثلاثة الفنون) والتي جاءت نظما لشرح القزويني (تلخيص المفتاح)، فرغم جهود القزويني في تلخيص المفتاح، واختصاره، وتهذيبه، وإعادة ترتيبه إلاّ أن طريقة صياغته بشكل منثور شقّت على كثير من طلبة العلم فكان ذلك دافعا للأخضري إلى نظمه في أرجوزة (الجوهر المكنون). ولهذا كان موضوع هذه المداخلة : هو التساؤل عن جهود الأخضري ومنهجه في نظم (الجوهر المكنون)، وما هي الطريقة التعليمية التي سلكها في صياغة هذا المتن حتى يسهل على الطلاب الاستفادة منه؟.

الكلمات المفتاحية:

المنظومات . الشروح . البلاغة . المنهج . المصطلحات . الجوهر المكنون .

Résumé :

les poèmes éducatifs et leurs explications sont des outils pédagogiques d'apprentissage et d'enseignement très efficaces .Et comme cette poésie éducative fut composée essentiellement soit à partir des textes en prose ,ou des autres poèmes à résumer, Abderrahmane El-Akhdari composa son poème éducatif appelé (Eldjaouhar elmaknoun fi sadf ethalathat founoun) sur la base de l'explication appelé(Talkhis El-miftah) d'El-qizouini et qui en dépit de ses efforts remarquables pour résumer El-miftah et d'en faciliter et réordonner, sa formulation sous forme des textes en prose fut difficile à appréhender par les apprenants. Tout ça a été une motivation pour El-Akhdari pour qu'il le reformule sous forme d'un petit poème appelé (Eldjaouhar elmaknoun).Donc nous allons nous nous interroger dans la présente- communication sur les efforts d'El-Akhdari ainsi que sa méthodologie suivie dans la composition d'Eldjaouhar El maknoun? et quelle fut d'ailleurs la

méthode éducative résidant dans son précieux œuvre afin d'en faciliter son apprentissage aux apprenants?

Mots clés:

Les poèmes éducatifs-les explications- la rhétorique-la méthode -les termes-Eldjaouhar elmaknoun.

أولا: ترجمة الناظم:

1. مولده ونشأته:

هو أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الصغير بن محمد بن عامر الأخضري، ولد سنة 920هـ في بنطيوس الواقعة جنوب غرب بسكرة.

نشأ الأخضري في بيت علم وفقه وصلاح، فتتلمذ على أبيه محمد الصغير، وأخيه الأكبر أحمد في بلدته بنطيوس، وأخذ العلم عن الشيخ عبد الرحمن بلقرون، والشيخ أبي الطيب، وعبد الهادي الفطناسي ببسكرة، كما تتلمذ على الشيخ الوزان القسنطيني، وظهرت عليه علامات النبوغ والتفوق في سن مبكرة فشرع في تأليف ونظم متون العلوم، فأنجز السراج في الفلك وهو فتى لا يتجاوز سنه سبع عشرة سنة، وألف أزهار المطالب في الإسطرلاب حين بلغ العشرين من عمره[1].

2. مؤلفاته:

لقد أوتي الشيخ الأخضري طائفة من المواهب، وجملة من الملكات أكسبته القدرة على التأليف والنظم ، فهو" أديب نابه وبياني رائق وشاعر مفلق وناظم محرر، ومنطقي متعقل وفقيه موفق، ومصلح متبصر ومحارب للبدع والخرافات وناقد لجميع مظاهر الانحرافات"[2].

تصل مؤلفاته إلى حوالي ثلاثين مؤلفا منها:

. الجوهر المكنون في صدف الثلاثة الفنون وهو نظم في علوم البلاغة

. شرح الجوهر المكنون : وهو شرح للنظم السابق.

. المنظومة القدسية في طريق السنة، المعروفة بالقدسية؛ وهي نظم في آداب السلوك، والتصوف.

. السلم المرونق في المنطق والحكمة.

. متن الأخضري في العبادات على مذهب الإمام مالك بن أنس.

. الدرة البيضاء، وهي أرجوزة في علمي الفرائض والحساب.

. رسالة التحذير من البدع.

ولم يكتف الأخضري بتأليف المتون والمنظومات فحسب بل تكفل بشرح بعضها، لأنه كان يدرك صعوبة تلقي تلك العلوم مختصرة دون توسع أو شرح، فكان يقوم بتدريس مؤلفاته وشرحها بنفسه أمام طلبته في بنطيوس[3].

3. وفاته:

اختلفت الآراء حول سنة وفاة الشيخ الأخضري، إذ تنقل بعض الروايات بأنه توفي سنة 953هـ، في حين ترجح بعض الروايات سنة 983هـ وهو ما ذهب إليه حاجي خليفة، والزركلي[4].

غير أن تلك الروايات تجمع على وفاته في منطقة كجال جنوب شرقي مدينة سطيف، ونقل جثمانه إلى مسقط رأسه بنطيوس بوصية أوصى بها تلاميذه و دفن بها إلى جانب جده محمد بن عامر ووالده محمد الصغير.

ثانيا: قيمة منظومة الجوهر المكنون:

لاشك أن للمنظومات والمتون والشروح والحواشي أهمية بالغة في نشر العلوم وتبسيطها فلا يكاد يخلو علم من العلوم التي انتشرت بين العرب من تلك المنظومات والمتون سواء كانت علوما دينية كالفقه وأصوله، وعلوم الحديث ، و الفرائض، و التوحيد وعلوم القرآن والتجويد، أو علوما لغوية كالنحو والصرف، والبلاغة، والعروض، بل تجاوزت تلك العلوم إلى علوم أخرى كالفلك، والمنطق ، والحساب، والطب، وغيرها[5] .

وما وجدت أغلب المنظومات والشروح إلا لغرض تعليمي تيسيرا على الطلبة، وإذا كانت المنظومات قد انتشرت بكثرة فهي إما لرسائل نثرية أو تلخيصا لمنظومات أخرى أو نظما لشرح.

ومنظومتنا هذه لم تشذّ عن هذه القاعدة، فهي نظم لشرح(التلخيص في علوم البلاغة) للقزويني الخطيب. فقد صرّح الناظم بالغرض من إنشاء هذا النظم إذ جاء بناء على دعوة من بعض الطلاب لنظم رجز في علوم البلاغة يكون ميسّرا لحفظها وفهم دررها. و بيّن اعتماده على تلخيص مفتاح العلوم للخطيب القزويني (ت739هـ) والذي هو في حقيقته تلخيص لمفتاح العلوم للسكّاكي في قسمه الثالث الذي خصّصه لعلوم البلاغة، فرغم اعتراف القزويني بفضل كتاب السكّاكي بأنه " أعظم ما صنّف فيه من الكتب المشهورة نفعا لكونه أحسنها ترتيبا، وأتمّها تحريرا، وأكثرها للأصول جمعا"[6]. إلاّ أنه لم يخل من بعض العيوب التي رآها دافعا لتأليف تلخيصه، ذلك أنه كان "غير مصون عن الحشو والتطويل والتعقيد، قابلا للاختصار ومفتقرا إلى الإيضاح والتجريد"[7].

وابتغاء تسهيله على طالبيه ومريديه وتقريبه من المبتدئين والناشئة وطلبة العلم وحتى العلماء، ألّف مختصرا قال عنه أنه:" مختصر يتضمّن ما فيه من القواعد ويشتمل على ما يحتاج إليه من الأمثلة والشواهد، ولم آل جهدا في تحقيقه وتهذيبه ورتّبته ترتيبا أقرب تناولا من ترتيبه، ولم أبالغ في اختصار لفظه تقريبا لتعاطيه وطلبا لتسهيل فهمه على طالبيه"[8].

وإذا كان (مفتاح العلوم) للسكّاكي، و(التلخيص في علوم البلاغة) للقزويني لقيا قبولا واستحسانا بين العلماء وطلبة العلم، ونالا شهرة في علم البلاغة، فإن منظومة (الجوهر المكنون في صدف الثلاثة الفنون) للأخضري لقيت ثناء العلماء والطلبة، وعمّ نفعها المشرق والمغرب، بل مازالت إلى يومنا هذا محل اهتمام الباحثين والدارسين، وتدرس في المعاهد والجامعات.

وتتجلى قيمة المنظومة من خلال كثرة شروحها وتداولها بين العلماء والطلبة وإشادة بعض العلماء بها، فهذا الثغري يقول في مقدمة شرحه للجوهر المكنون:" أما بعد فلما رأيت منظومة الشيخ سيدي عبد الرحمن الأخضري الموسومة بالجوهر المكنون من أجلّ ما صنف في علم البيان...وقد شرحها ناظمها شرحا مفيدا وأعرب عما في ضميره وأبان، لكن بقي في بعض الأماكن بياض في الشرح وذلك في جميع النسخ الواصلة إلينا فصار من نظر فيه لم يشتف منه جنان...أردت بعون الله وقوته تقييد دررها وضم شوارد غررها ذوات القدر والشان بشرح يكشف الغطا عن جواهرها المصونة ويبرز ما خفي من معانيها المكنونة عن الأذهان..." [9].

كما تظهر قيمة هذه المنظومة إذا قيست ببعض منظومات التلخيص فلقد حظيت من بين منظومات التلخيص بشروح تجاوزت العشرة، بينما لم تحظ المنظومات الأخرى المتعلقة بالتلخيص بهذا العدد من الشروح، بل إن بعضها لم يشرح أصلا، وهذا الاهتمام راجع إلى نفاستها وشمولها[10].

فمن شروحها :

. موضح السر المكمون في شرح الجوهر المكنون لمحمد بن محمد بن علي بن موسى الثغري.

. شرح الجوهر المكنون في الثلاثة الفنون للعلامة أحمد بن محمد العباسي السملالي، ت(1152هـ).

. حلية اللب المصون للدمنهوري.

. حاشية المنياوي على حلية اللب المصون للمنياوي.

. شرح الجوهر المكنون في صدف الثلاثة الفنون للشيخ أحمد الحازمي .

وقد ذهب البعض إلى أكثر من ذلك، فقد رأى بأن مؤلفات الأخضري لقيت القبول والاستحسان وانتشرت بين العلماء وطلبة العلم " وقد كتب الله لها القبول عند الناس عامة فدرسها المبتدئون وشرحها العلماء والأدباء والمربون وعم نفعها أهل المشرق والمغرب "[11]، وما كان ذلك كذلك إلا " لصلاح باطنه واستقامته على نهج

الهدى وأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر، فإن ذلك يورث صدق اللهجة وحسن التعبير، ويبارك الله تعالى في جهد صاحبه ويضع له القبول في الأرض"[12]. ويشير محقق النظم إلى الكثرة الكاثرة من نسخ المنظومة التي انتشرت بشكل لافت إلى حد جعله يشكك في صحتها " فقد أدت شهرة هذا النظم إلى كثرة نسخه المخطوطة في أنحاء العالم، لكن لم أجد في حدود اطلاعي ما يرجح بعض تلك النسخ، أو على الأقل يورث الثقة فيها ، بل هي غالبا خالية من اسم الناسخ . أصلا . ... ولذلك أعرضت عن كل تلك النسخ واعتمدت رواية الناظم نفسه في شرحه لنظمه" [13].

ثالثا: منهج الأخضري في تأليف الجوهر المكنون:

لقد مال الأخضري إلى نظم منظومته متماشيا مع عصره إذ انتشرت المنظومات بشكل لافت وعدت من الأساليب التعليمية التي تسهل على الناشئة ، والطلبة ، وحتى العلماء، حفظ المنظوم واسترجاعه

فاعتمد في منظومته على منهجية لم تخالف كثيرا طريقة تأليف المنظومات في عصره، و تضمنت عناصر صارت تقليدا في كتابة المتون والمنظومات، فقد استهل نظمه بمقدمة بدأ فيها بالحمدلة ثم الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى الخلفاء الأربعة ، ثم بقية الصحابة ، وذكر فضل علوم البلاغة في فهم العربية وفهم وأسرارها، ثم ذكر الدافع إلى تأليف هذا النظم، وتسمية النظم(بالجوهر المكنون في صدف الثلاثة الفنون).

ليشرع في الحديث عن فنون البلاغة الثلاثة؛ المعاني، والبيان، والبديع. ثم خاتمة الكتاب التي أبان عنها بقوله:

هذا تمام الجملة المقصودة من صفة[14] البلاغة المحمودة[15]

ثم الصلاة على الرسول صلى الله عليه وسلم، وتاريخ الفراغ من تأليف النظم في شهر ذي الحجة في تمام نصف القرن العاشر الهجري.

غير أن ما نحاول أن نبسطه في هذه المداخلة هو المنهجية التعليمية التي اتبعها الأخضري في نظم الجوهر المكنون في صدف الثلاثة الفنون.

رابعا:المنهجية التعليمية عند الناظم في الجوهر المكنون:

اتبع الأخضري منهجية تعليمية قد تتفق مع بعض المنهجيات المتبعة في تأليف المنظومات والمتون والحواشي والتعليقات وقد تختلف، وقد ترجع بعض الاختيارات المنهجية التعليمية عند الأخضري إلى جمعه بين تأليف المنظوم، والمنثور من جهة ، وبين التأليف والشرح والتدريس من جهة أخرى، ولنتبين ذلك نستكشف بعض تلك العناصر المتمثلة في:

1. التقيّد بالمتن:

يتجلى ذلك من خلال التزام الناظم بموضوعات كتاب تلخيص المفتاح واتباع الترتيب الذي اعتمده القزويني، فقد صرّح الأخضري بذلك في قوله:

سلكت ما أبدى من الترتيب وما ألوت الجهد في التهذيب[16]

فبدأ بالمقدمة التي خصّصها للتعريف بالفصاحة ثم بفنون البلاغة الثلاثة؛ المعاني، والبيان، والبديع، ثم شرع في تفصيل كلّ فن على حدة: فبدأ بعلم المعاني وفيه: الإسناد الخبري، والمسند إليه، والمسند، ومتعلقات الفعل، ثم القصر، والإنشاء، والفصل، والوصل، والإيجاز والإطناب، والمساواة. لينتقل بعدها إلى علم البيان الذي بدأه بالتشبيه، ثم الحقيقة والمجاز، فالاستعارات، ثم الكناية.

ثم تطرق إلى علم البديع فقسمه إلى ضربين: أما الأول فسماه الضرب المعنوي، وأما الثاني فسماه الضرب اللفظي، ففي الضرب الأول يدخل المطابقة، والمشاكلة، والعكس، والتورية، واللف، والنشر، والجمع، والتفريق، والتقسيم...

ويدخل في الضرب الثاني: الجناس، والسّجع، والموازنة.

ليعرض إلى بعض الأبواب كالسرقات، والاقتباس والتضمين، والحل والعقد والتلميح...

ثم يذيّل ذلك كله بخاتمة.

2. حسن الترتيب والتبويب:

فكان معنيا بحسن الترتيب والتقسيم، إذ قسمت المنظومة إلى أبواب وفصول ، ولاشك أن النظرة القائمة على المحاور في التصنيف هي نظرة تعليمية مناسبة للفكر لما فيها من ترابط بين المسائل في الأبواب وذلك يساعد المتعلم على الترتيب الذهني وعلى التذكر أيضا[17]. وإذا كان الأخضري قد صرح بأنه قد اتبع الترتيب نفسه الذي وضعه القزويني فإنه لم يلتزم بذلك في كل المنظومة بل اجتهد بالتهذيب . كما قال . وأدخل تعديلات كلما دعت الضرورة لذلك، فقد عالج بعض القضايا بطريقة واضحة وبعناوين أكثر دلالة: مثل تخصيصه عنوانا (للإسناد العقلي) الذي كان مدمجا عند القزويني في محتوى (الإسناد الخبري) ككل، كما حرص على إعادة تبويب موضوع (أحوال المسند إليه) بغرض تقريب الفكرة وتوضيحها لتلاميذه فقام بإنشاء فصل بعنوان (الخروج عن مقتضى الظاهر) بينما عولج هذا الموضوع في كتاب التلخيص مدمجا وبشكل غامض[18].

3. الإجمال ثم التفصيل:

وهي . لاشك . طريقة من صميم المنهج التعليمي، حيث يعرض للمسائل جملة ثم يشرع في تفصيلها؛ وتعرف بطريقة الانتقال من الكل إلى الجزء.

إذ يعرف على سبيل المثال بالعلم وفروعه جملة ثم يذكر تفصيل ذلك، ففي تعريف علم المعاني يقول:

علم به لمقتضى الحال يرى لفظا مطابقا وفيه ذكرا[19]

ويذكر أقسام هذا العلم:

إسناد مسند إليه مسند ومتعلقات فعل تورد

قصر وإنشاء وفصل وصل أو إيجاز إطناب مساواة رأوا[20]

وهي بمثابة فهرس أو تبويب لما سيتم تناوله.

4. براعة النظم وحسن السبك:

إن القارئ للجوهر المكنون لا يلمس فرقا واضحا في تعريف المصطلحات البلاغية بين القزويني في تلخيص المفتاح المنثور، وبين الأخضري في الجوهر المكنون المنظوم، فتكاد العبارات والألفاظ التي يستعملها القزويني هي العبارات والألفاظ التي يستعمله الأخضري رغم أن ذلك نثر و هذا نظم ولا شك أن ذلك مما يحسب للأخضري في براعته وحسن تمكنه من النظم. ولنتبين ذلك نسوق هذا المثال:

جاء في تعريف الفصاحة في تلخيص المفتاح:" فالفصاحة في المفرد خلوصه من تنافر الحروف ، والغرابة، ومخالفة القياس"[21].

ويعرف الأخضري الفصاحة بالقول:

فصاحة المفرد أن يخلص من تنافر غرابة خلف زكن[22]

وتتجلى براعة الأخضري من خلال استعماله بيتا في أحد أبيات أرجوزته كشاهد

ومهمه مغبرة أرجاؤه كأن لون أرضه سماؤه[23]

واستعمال آية قرآنية كشاهد في أحد الأبيات كذلك وهي قوله:

كالتائبون العابدون الحامدون السّائحون الراكعون الساجدون[24]

ومما يشهد للأخضري ببراعته في النظم وقدرته على حسن السبك جمعه بين الإيجاز وسهولة النظم مع كثرة المعلومات التي حوتها فعلى سبيل المثال نجد بعض منظومات التلخيص وصلت إلى ألفين وخمسمائة بيت (كنظم زين الدين أبي العز الحلبي) ، ومنها ما جاوز الألف (كعقود الجمان) ، أما منظومة الجوهر فتمثلت في مائتين وواحد وتسعين بيتا جمع فيها الناظم معظم مسائل التلخيص وفيها زيادات من مصادر أخرى [25].

وتتجلى براعة الأخضري في النظم . مرة أخرى . في قلة الضرورات الشعرية في (منظومة الجوهر المكنون) قياسا بمنظومة (عقود الجمان)، وهذا دليل واضح على تميز الأخضري بالنظرة الكلية الشاملة التي تسمح له بالتنقل من فكرة إلى أخرى لكي يساير الأوزان الشعرية ويراعي القياس اللغوي ويواكب القواعد والمفاهيم التي يتضمنها النظم[26].

5. توظيف الأمثلة تربويا:

استعمل الأخضري من خلال سوقه لبعض الأمثلة التربوية التي تدعو إلى تزكية النفس وتهذيبها ،وإلى الالتزام بالتصوف والالتزام بمبادئ الشريعة الإسلامية، فحذا حذو الجرجاني في كتابه (العوامل المائة) الذي اتجه فيه بالأمثلة اتجاها تربويا لأنه كان حريصا على أن يقدم الأمثلة التي يصوغها مما يبث القيم الدينية في نفوس المتعلمين ، فتمحورت حول الإيمان بالله واليوم الآخر ، والتوبة، والطاعة، والإخلاص، وطلب العلم وعدم الكبر[27]... ومن الأمثلة التي استشهد بها الجرجاني: آمنت بالله وبه لأبعثن، كففت عن الحرام، إن تبت تغفر ذنوبك، ينبغي للعالم أن يكون محمديا خلقه، كأن الحرام نار، إن البعث حق، طلب العلم عبادة، يجب العمل ثم العمل، آمنا بنبينا محمد عليه الصلاة والسلام[28].

وهكذا فإن الأخضري استطاع أن يبث بعض القيم التربوية، ويوظف الأمثلة تربويا في منظومته، نحو قوله:

كعن مجالس الفسوق بعدا ولا تصاحب فاسقا فتردى[29]

كالزم . رعاك الله . قرع الباب[30]

كالزهد رأس التزكية، كما جليس الفاسقين بالأمين، الذكر يهدي لطريق التصفية.

وهو منهج خاص اعتمده الأخضري في كثير من أمثلته، بل في بعض الأحيان يسوق ذلك من باب التذكير، لينبه إلى عدم الغفلة عن ذكر الله، وهو أمر تفتقده كثير من المؤلفات في علوم اللسان العربي، بل تفتقده كثير من الكتب الشرعية، فلعل هذا المنهج الذي سلكه المؤلف يعد سبقا[31] منه في هذا الباب.[32]

6. تعريف المصطلحات البلاغية:

فهو لا يتناول بابا أو فصلا دون تعريفه ففي باب الفصل يعرف الفصل:

الفصل ترك عطف جملة أتت من بعد أخرى عكس وصل قد ثبت[33]

وفي تعريف القصر يقول:

تخصيص أمر مطلقا بأمر هو الذي يدعونه بالقصر[34]

ويقول في تعريف المساواة:

تأدية المعنى بلفظ قدره هي المساواة كسر بذكره[35]

ويعرف علم البيان فيقول:

فن البيان علم ما به عرف تأدية المعنى بطرق مختلف

وضوحها واحصره في ثلاثة تشبيه أو مجاز أو كناية[36]

7. استعمال الألفاظ والعبارات الدالة على توجيه الخطاب للمتعلم:

وهي طريقة امتازت بها أغلب المتون والمنظومات والمصنفات ، فكثيرا ما يستعمل المصنفون لفظة اعلم، أو قس، فقد استعمل الأخضري هذه اللفظة كثيرا كما استعمل ألفاظا أخرى مشابهة من ذلك:

قل، فاعلم، نلت ، فاتبع ،فاذكره، فاقتف، فائتس، فافصل، فصل، تراه، تلفيه...

8. استعمال بعض الألفاظ لإثارة الانتباه:

فمثلما يستعمل المعلم بعض الألفاظ للفت انتباه المتعلمين، أو تنبيههم عندما يشرد ذهنهم، فإننا نجد الأخضري قد استعمل هذا الأسلوب التعليمي من خلال إتيانه ببعض الألفاظ لإثارة الانتباه، نحو: انتبه، فاستفق، فعي، فكن منيب، عند المنتبه.فاعلم وانتبه، فاعرف القياس، عند ذوي الأذهان.

9. تعدد الشواهد والأمثلة:

تميزت المنظومة بتعدد الشواهد والأمثلة التي استعملها الناظم وهي ميزة تؤكد الطابع التعليمي للمنظومة والمنهج الذي سلكه الناظم. وبالرجوع إلى المنظومة نجد الشواهد والأمثلة تتمثل في:

أ . القرآن الكريم:

يستشهد الناظم بالقرآن الكريم دون أن يصرح بذلك وقد يعزى ذلك إلى أن معظم الطلبة يحفظون القرآن الكريم ، أو هم على علم بأنها قرآن كريم، وأحيانا مراعاة للاختصار، وأشار الناظم في حالة واحدة إلى آية من القرآن الكريم في حديثه عن نوع من أنواع السجع وهو المتوازي في قوله:

وما سواه المتوازي فادري كسرر مرفوعة في الذكر[37]

ب . الحديث الشريف:

لم يستشهد الناظم بالحديث الشريف مع أن القزويني استشهد ببعض الأحاديث النبوية الشريفة، ولم أعثر في المنظومة على حديث شريف استشهد به الأخضري إلا في مثال واحد ضُمّن معنى الحديث و هو قوله:

كعن مجالس الفسوق بعدا ولا تصاحب فاسقا فتردى

في إشارة منه إلى الحديث النبوي" لا تصاحب إلا مؤمنا ولا يأكل طعامك إلا تقي"[38].

ج . الشعر:

استشهد الأخضري ببيتين من الشعر ذكرهما القزويني في التلخيص ، فأورد بيتا كاملا في فصل الخروج عن مقتضى الظاهر وهو قوله:

ومهمه مغبرة أرجاؤه كأن لون أرضه سماؤه

في حين استشهد بشطر من بيت في أحد الأمثلة وهو قوله:

كأنشبت منية أظفارها وأشرقت حضرتها أنوارها [39]

في إشارة إلى بيت أبي ذؤيب الهذلي:

وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفيت كل تميمة لا تنفع[40]

د. التمثيل:

اعتمد الناظم أسلوبا تعليميا طغى عليه التمثيل وهي طريقة تعليمية تساعد على الترسيخ وقد يكون لطبيعة علم البلاغة فضل في ذلك إذ تقتضي التمثيل واستعمال الشواهد، وإذا ما قيس نظم الأخضري بالتلخيص فإننا نجد الأخضري قد بذل جهدا في اختصار تلك الشواهد إذ الناظر إلى التلخيص يجده لم يغادر قاعدة أو تعريفا أو مصطلحا إلا وأتبعه بمثال أو شاهد من القرآن الكريم أو الشعر.

10. استعمال الأمثلة والمصطلحات الصوفية:

إن المتأمل في منظومة الجوهر المكنون تستوقفه ملاحظة هامة؛ وهي كثرة المصطلحات والألفاظ والعبارات الصوفية، فيستعمل الناظم ألفاظا وعبارات صوفية تدعو إلى التصوف أحيانا، وتمدحه أحيانا أخرى، ومن بين تلك الأمثلة:

الذكر مفتاح لباب الحضرة، كحبذا طريقة الصوفية ، كالخير في العزلة يا ذا الصوفي، كالصوفي وهو المهتدي، كفاز بالحضرة ذو تصرف، كأشرقت بصائر الصوفية، بشمس نور الحضرة القدسية، كالذكر يهدي لطريق التصفية ، الحقيقة، التجريد. كفاز من تبتلا، كالزهد رأس التزكية...

وقد نبه إلى تلكم الملاحظة محقق النظم حين قال:" يلاحظ القارئ للنظم كثرة المصطلحات الصوفية عند تمثيل المؤلف لكثير من الأساليب والفنون البلاغية ، ومن المعلوم حال المصطلحات الصوفية وما دخلها في

عصور شتى من غموض ومخالفات واختلاط للحق بالباطل"[41]، فدعا إلى الرجوع إلى تعريف التصوف عند من فهم حقيقته كابن القيم وغيره، إذ كان من أحسن من تكلم على تلك المصطلحات وبين صحيحها من سقيمها في كتابه (مدارج السالكين)[42].

ويبدو أن الأخضري ممن فهموا حقيقة التصوف، إذ كثيرا ما ينبذ البدع ، ويلقي باللائمة على العلماء الذين لم ينكروها، بل حادوا عن سبيل الحق، فألف رسالة في التحذير من البدع، مثلما حذر منها في منظومة القدسية، يقول في المنظومة القدسية[43]:

هذا زمان كثرت فيه البدع واضطربت عليه أمواج الخدع

وخسفت شمس الهدى وأفلت من بعد ما قد بزغت وكملت

والدّين قد تهدمت أركانه والزور طبّق الهوى دخانه

ويضيف قائلا:

ياويلتي هذا زمان البدع مات به أهل التقى والورع

واحسرتي على الكرام البرره قد أخلفوا بالمدّعين الفجره

ويصف الدجّالين وعلماء السوء فيقول:

قد ادّعوا مراتب جليله والشرع قد تجنّبوا سبيله

قد نبذوا شريعة الرسول فالقوم قد حادوا عن السبيل

إلى أن يقول:

وكثرت أهل الدعاوى الكاذبة وصارت البدعة فيهم غالبة

11. الإيجاز في بعض الحالات بالتمثيل:

ففي الجوهر المكنون نجد بعض الأبواب والفصول تخلو من الشواهد والتمثيل، خلافا لما سار عليه القزويني في التلخيص إذ لا تخلو قاعدة أو تعريف أو مصطلح من شاهد أو مثال. إذ يجعل لكل ظاهرة بلاغية أو مصطلح بلاغي شاهدا أو مثالا ، بل قد تتعدد تلك الشواهد والأمثلة.

12. سهولة العبارة ووضوحها:

فهو لم يستعمل العبارات الغامضة التي يصعب على المتعلم فهمها بل استعمل عبارات بسيطة وواضحة، بأسلوب سلس وسهل إذ بإمكان كل من يطلع على المنظومة أن يفهم معانيها دون عناء ، ولعل مما زاد من سهولتها ويسرها تلك الأمثلة والشواهد، وعلى هذا الأساس يمكن أن نصنف أسلوب هذه المنظومة ضمن ما يعرف بالسهل الممتنع.

13. عدم تطرقه للاختلافات:

فهو لم يورد اختلافات العلماء وأقوالهم ، بل يكتفي باستعمال بعض العبارات التي توحي بوجود أقوال وآراء حول المسألة الواحدة، فيستعمل عبارات من مثل: كذا رأووا، وأكدوا، عند العلماء، عنهم نقل، والسرقات عندهم قسمان، والاقتباس عندهم ضربان...

والبيت الوحيد الذي أشار فيه إلى خلاف بين العلماء قوله:

واشترطوا الشهرة في الكلام والمنع أصل مذهب الإمام[44]

أما في التلخيص فكثيرا ما يورد القزويني بعض الاختلافات ويشير إلى آراء بعض العلماء كالجاحظ، والجرجاني، والسكاكي، في حين نجد الأخضري يتبع أسلوب الاختصار، ولا يعرض الاختلافات تسهيلا على الطلبة. فعلى سبيل المثال يورد القزويني بعض الآراء:

ففي الاستشهاد بالبيت :

يزيدك وجهه حسنا إذا ما زدته نظرا[45]

يقول القزويني: " أي يزيدك الله حسنا في وجهه وأنكره السكاكي ذاهبا إلى أن ما مر ونحوه استعارة بالكناية ، على أن المراد بالربيع الفاعل الحقيقي بقرينة نسبة الإثبات إليه، وعلى هذا القياس غيره وفيه نظر..."[46].

وفي موضع آخر يقول: " قال عبد القاهر: وقد يقدم ليفيد تخصيصه بالخبر الفعلي وإن ولي حرف النفي، نحو: ما أنا قلت هذا: أي لم أقله مع أنه مقول لغيري...ووافقه السكاكي على ذلك إلا أنه قال : التقديم يفيد الاختصاص إن جاز تقدير كونه في الأصل مؤخرا على أنه فاعل معنى فقط..."[47].

في حين نجد الأخضري في كثير من الحالات يكتفي باستعمال عبارات توحي بتعدد الآراء حولها أو حول المسألة الواحدة، كقوله: عندهم، عنهم نقل، عند العلماء، وخصصوا، وتركوا.

14. الاكتفاء بذكر فروع العلم وتقسيماته أو تعريف المصطلحات البلاغية دون ذكر أمثلة:

ولتوضيح ذلك نسوق المثال الآتي:

يقول الأخضري في تعريف البديع:

علم به وجوه تحسين الكلام يعرف بعد رعي سابق المرام

ثم وجوه حسنه ضربان بحسب الألفاظ والمعاني[48]

ليشرع في ذكر الضرب الأول المعنوي:

والثاني[49]من ألقابه المطابقة تشابه الأطراف والموافقة

والعكس والتسهيم والمشاكلة تزاوج رجوع أو مقابلة

تورية تدعى بإيهام لما أريد معناه البعيد منهما[50]

وبالرجوع إلى التلخيص نجد الفرق واضحا، يقول القزويني في تعريف علم البديع:

" وهو علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية المطابقة ووضوح الدلالة، وهو ضربان: معنوي ولفظي: أما المعنوي: فمنه المطابقة، وتسمى الطباق، والتضاد أيضا، وهي الجمع بين متضادين : أي معنيين متقابلين في الجملة، ويكون بلفظين من نوع اسمين نحو:﴿ وتَحْسِبُهُمْ أَيْقَاظًا وهُمْ رُقُودٌ﴾[51]. أو فعلين نحو:﴿يُحْيِي وَيُمِيت﴾[52]. أو حرفين نحو:﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾[53]. أو من نوعين نحو: ﴿أَوَ مَنْ كَانَ مَيِّتاً فَأَحْيَيْنَاهُ﴾[54]. ويزيد تفصيلا ليذكر: " وهو ضربان: طباق الإيجاب كما مر، وطباق السلب نحو: ﴿وَلَكِنَ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[55].

فبإجراء مقارنة بسيطة بين ما أورده القزويني في التلخيص وما أورده الأخضري في الجوهر المكنون نلاحظ شدة اختصار الأخضري إذ اكتفى بالتعريف بعلم البديع وذكر نوعيه، كما ذكر المطابقة بإيجاز دون أن يبسط القول ويذكر التفاصيل، أو يأتي بالأمثلة.

خاتمة:

أبرز الأخضري قدرة فائقة في النظم وبراعة في حسن الأخذ والتضمين جعلت منظومته الجوهر المكنون في صدف الثلاثة الفنون تنال شهرة واسعة، ويعم نفعها أرجاء المشرق والمغرب، فكانت نظما متميزا، ويتبين ذلك من خلال:

- تداو
لها بين العلماء والطلبة وإشادة بعض العلماء بها.
- كثرة
شروحها مقارنة بباقي المنظومات المتعلقة بالتلخيص.

- جم

عها بين الإيجاز وسهولة النظم مع كثرة المعلومات التي حوتها.

- قلة

الضرورات الشعرية في (منظومة الجوهر المكنون) قياسا بمنظومة (عقود الجمان) مثلا.

- تو

ظيف الأمثلة تربويا، لبث بعض القيم والسلوكيات التربوية.

- الحـ

رص على الالتزام بالتصوف، والدعوة إليه عند التمثيل، والتذكير به في ثنايا المنظومة.

- كما

انفردت المنظومة ببعض المزايا التي يسرت على الطلبة حفظها، كالإيجاز في بعض الأحيان في التمثيل، وعدم التطرق للاختلافات، واستعمال بعض الألفاظ والعبارات لإثارة انتباه المتعلمين، وهكذا فإن مثل هذه المزايا هي التي مكنت للمنظومة من الانتشار والذيوع واستحسانها بين الطلبة والعلماء، وتفضيلها على منظومات أخرى.

الإحالات:

[1]ينظر : عبد الرحمن الأخضري العالم الصوفي الذي تفوق في عصره، بوزياني الدراجي، دار الأمل للدراسات، ط2، 2009 ، ص 15.

[2] شرح الفليسي المغربي على متن الإمام الأخضري ، محمد بن عبد الرحمن الفليسي المغربي ،تحقيق: محمد بن أحمد بن الطالب عيسى الشنقيطي،دار الذخائر،الدمام، السعودية،ط1، 2000م، ص12، العبارة للمحقق.

[3] ينظر: عبد الرحمن الأخضري العالم الصوفي الذي تفوق في عصره، بوزياني الدراجي، ص28،29.

[4]الأعلام، للزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، ط2002،15،ج3، ص331.

[5] من ذلك منظومة الشفهونية في الطب للعلامة سيدي صالح بن المعطي. يراجع: المجموع الكامل للمتون، ص890 .

[6] التلخيص في علوم البلاغة، محمد بن عبد الرحمن القزويني الخطيب، ضبطه وشرحه عبد الرحمن البرقوقي، دار الفكر العربي، ط2، ص22.

[7] نفسه، ص22.

[8] نفسه، ص22،23.

[9] موضح السر المكمون، الثغري، 1أ، 1ب. نقلا عن الجوهر المكنون في صدف الثلاثة الفنون، مقدمة المحقق، ص 12، 13.

[10]ينظر: شرح الجوهر المكنون في صدف الثلاثة الفنون لعبد الرحمن الأخضري:دراسة وتحقيقا، محمد بن عبد العزيز بن عمر نصيف،رسالة دكتوراه مخطوطة، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، 1430/1429هـ ، ص 2.

[11] شرح الفليسي المغربي على متن الإمام الأخضري، محمد بن عبد الرحمن الفليسي المغربي ، ص 12،13.

[12]نفسه، ص 13.

[13] الجوهر المكنون في صدف الثلاثة الفنون، عبد الرحمن الأخضري، تحقيق: محمد بن عبد العزيز نصيف، مركز البصائر للبحث العلمي،دط، دت، ص 9.

[14]وردت في المجموع الكامل للمتون (صفة) بينما ذكرها المحقق بلفظة (صنعة). ينظر: الكامل في المتون،جمعه وصححه، محمد خالد العطار، دار الفكر، بيروت،ط1، 2002م،ص 571.

[15]الجوهر المكنون في صدف الثلاثة فنون، عبد الرحمن الأخضري، ص 48.

[16]نفسه، ص 22.

[17]ينظر: النحو التعليمي في التراث العربي، محمد إبراهيم عبادة، المعارف، الإسكندرية، دط، دت، ص 79.

[18]ينظر: عبد الرحمن الأخضري العالم الصوفي الذي تفوق في عصره، بوزياني الدراجي، ص250.

[19]الجوهر المكنون في صدف الثلاثة فنون، عبد الرحمن الأخضري، ص24.

[20]نفسه، ص24.

[21] التلخيص في علوم البلاغة، محمد بن عبد الرحمن القزويني الخطيب، ص24.

[22]الجوهر المكنون في صدف الثلاثة الفنون، عبد الرحمن الأخضري، ص23.

[23] البيت لرؤبة بن العجاج، وورد بصيغة: وبلد عامية أعماؤه كأن لون أرضه سماؤه ، ينظر: مجموع أشعار العرب، وليم بن الورد البروسي، دار ابن قتيبة، الكويت، دط،دت، ص 3.

[24]سورة التوبة، الآية: 112.

[25]ينظر: شرح الجوهر المكنون في صدف الثلاثة الفنون لعبد الرحمن الأخضري:دراسة وتحقيقا، محمد بن عبد العزيز بن عمر نصيف ، ص 2.

[26]ينظر: عبد الرحمن الأخضري العالم الصوفي الذي تفوق في عصره، بوزياني الدراجي، ص 32.

[27] ينظر:النحو التعليمي في التراث العربي، محمد إبراهيم عبادة، ص 92.

[28]ينظر: العوامل المائة النحوية للجرجاني، تحقيق: البدراوي زهران، دار المعارف ، 1983، ص118. 127.

[29] الجوهر المكنون في صدف الثلاثة الفنون، عبد الرحمن الأخضري ، ص33.

[30]نفسه، ص33.

[31]سبقت الإشارة إلى استعمال الجرجاني لمثل هذا المنهج.

[32]ينظر: شرح الجوهر المكنون في صدف الثلاثة الفنون لعبد الرحمن الأخضري:دراسة وتحقيقا، محمد بن عبد العزيز بن عمر نصيف .

[33] الجوهر المكنون في صدف الثلاثة الفنون، عبد الرحمن الأخضري، ص32.

[34] نفسه، ص31.

[35]نفسه، ص33.

[36]نفسه، ص34.

[37] وهي قوله تعالى: ﴿ فيها سرر مرفوعة وأكواب موضوعة﴾ سورة الغاشية، الآية:13، 14.

[38] رواه أحمد، والترمذي، وأبو داوود، وصححه الألباني.

[39] الجوهر المكنون في صدف الثلاثة الفنون، عبد الرحمن الأخضري ، ص39.

[40]أبو ذؤيب الهذلي حياته وشعره، نورة الشملان، عمادة المكتبات، الرياض، ط1، 1980، ص 57.

[41]الجوهر المكنون في صدف الثلاثة الفنون، عبد الرحمن الأخضري ، ص 20

[42]نفسه ،ص 20.

[43]ينظر: عبد الرحمن الأخضري العالم الصوفي الذي تفوق في عصره، بوزياني الدراجي،ص 17، 18.

[44]الجوهر المكنون في صدف الثلاثة الفنون، عبد الرحمن الأخضري، ص 46.

[45] البيت لأبي نواس في قصيدة يهجو فيها الأعراب لتعشقهم النساء دون الغلمان، التلخيص في علوم البلاغة، القزويني الخطيب، ص51.

[46]نفسه، ص52.

[47]نفسه، ص75. 80.

[48]الجوهر المكنون في صدف الثلاثة الفنون، عبد الرحمن الأخضري ، ص41.

[49] في المجموع الكامل للمتون وردت (وعدّ) ص567.

[50]الجوهر المكنون في صدف الثلاثة الفنون، عبد الرحمن الأخضري ، ص41.

[51] سورة الكهف:الآية 18.

[52]سورة البقرة: الآية:258.

[53]سورة البقرة: الآية:286.

[54]سورة الأنعام: الآية:122.

[55] سورة النحل: الآية:38.

المصادر والمراجع:

أولا: القرآن الكريم

ثانيا: الكتب:

1. أبو ذؤيب الهذلي حياته وشعره، نورة الشملان، عمادة المكتبات، الرياض، ط1، 1980 .
2. الأعلام، للزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، ط2002،15،ج3.
3. التلخيص في علوم البلاغة، محمد بن عبد الرحمن القزويني الخطيب، ضبطه وشرحه عبد الرحمن البرقوقي، دار الفكر العربي، ط2، دت.
4. الجوهر المكنون في صدف الثلاثة الفنون، عبد الرحمن الأخضري، تحقيق: محمد بن عبد العزيز نصيف، مركز البصائر للبحث العلمي،دط، دت،.
5. شرح الجوهر المكنون في صدف الثلاثة الفنون لعبد الرحمن الأخضري:دراسة وتحقيقا، محمد بن عبد العزيز بن عمر نصيف،رسالة دكتوراه مخطوطة، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، 1430/1429هـ

6. شرح الفليسي المغربي على متن الإمام الأخضري، محمد بن عبد الرحمن الفليسي المغربي ،تحقيق: محمد بن أحمد بن الطالب عيسى الشنقيطي،دار الذخائر،الدمام، السعودية،ط1، 2000م.
7. عبد الرحمن الأخضري العالم الصوفي الذي تفوق في عصره، بوزياني الدراجي، دار الأمل للدراسات، ط2، 2009 ، ص 15.
8. العوامل المائة النحوية للجرجاني، تحقيق: البدراوي زهران، دار المعارف ، 1983م.
9. الكامل في المتون، جمعه وصححه، محمد خالد العطار، دار الفكر، بيروت، ط1، 2002م، ص 571.
10. مجموع أشعار العرب، وليم بن الورد البروسي، دار ابن قتيبة، الكويت، دط،دت، ص 3.
11. النحو التعليمي في التراث العربي، محمد إبراهيم عبادة، المعارف، الإسكندرية، دط، دت، ص 79.